

# الباب الثالث

## التربية في العصور الحديثة



## الفصل الخامس

### الثقافة والتربية فى الغرب الحديث

#### مرحلة انتقال :

أمضى الإنسان الأوروبى ثلاثة قرون محاولا التخلص مما كسا عقله وصبغ تفكيره خلال العصور الوسطى . وشهدت الفترة بين القرن الرابع عشر والسادس عشر حركات جريئة تحدى فيه العقل الأغلال التى صفدته طويلا ، تحدى فيها الفلاحون والأقنان سادتهم وثاروا عليهم . تحدى فيها العامة رجال الدين ورفضوا سطوتهم وسلطانهم بل تحدى الملوك سلطة الكرسى البابوية .

وتعتبر هذه القرون مرحلة انتقال بين تربية العصور الوسطى وتربية العصور الحديثة ، بل انها الفترة التى بذرت بذور التربية الحديثة .

#### أولا - عصر النهضة :

ويطلق عصر النهضة على الفترة الزمنية فى أوروبا بين القرن الرابع عشر والسادس عشر . وكلمة Renaissance تعنى المولد الجديد ، وهذا يشير الى بعث الروح القديمة الكلاسيكية ، بعثها الى الحياة على دعائم الفلسفة الاغريقية .

وقبل أن نتحدث عن التقدم التربوى فى عصر النهضة جدير بنا أن نلقى نظرة سريعة على مظاهر الحياة السائدة فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر فى أوروبا .

١ - نمت السلطة السياسية المركزية للحكام فى إنجلترا وفرنسا ، وبذلك كان النظام الاقطاعى يخلى السبيل للمؤسسات المركزية أى للحكومة القومية فى الدولة .

٢ - نمت التجارة التى بدأت فى الازدهار خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر وكانت مدن ايطاليا وشمال ألمانيا مراكز هامة للتجارة ، ولكن

تفترات حدثت خلال القرن السادس عشر بعد اكتشافات فاسكو دى جاما ، وكريستوفر كولمبس وماجلان ، فقد ظهرت آفاق جديدة للتجارة عبر المحيطات بعد أن كانت قاصرة على البحار مثل المتوسط والبلطيق والشمال . وازدهرت صناعة السفن وحرف كثيرة مرتبطة بالبحر والملاحة .

وبدأ تأثير الطبقة المتوسطة السياسى يظهر فى البرلمان الانجليزى وفى السياسة الفرنسية وفى المدن الايطالية الكبرى مما عكس صورة عن الثروة المتزايدة والقوة الاقتصادية النامية لدى جماعات التجار وهم الذين عرفوا باسم البرجوازيين ، والذين تجمعوا فى المدن الكبرى .

٣ - نمت الحركة المضادة للبابوية خلال عصر النهضة .

ومع بداية القرن السادس عشر كانت الهجمات على الكنيسة تزداد من كل اتجاه ، فالملوك والحكام يريدون بسط نفوذهم على الكنيسة ، كما ثار الفلاحون معترضين ومعهم أفراد الطبقة الوسطى على الضرائب التى تفرضها الكنيسة ، وكانوا يصيحون : أن رجال الكنيسة غرتهم الدنيا والغنى والمال فأهملوا واجباتهم الدينية . ولم يعجب الكثيرين الطرائق التى لجأت اليها الكنيسة فى الحصول على المال ، فللغفران صكوك تباع ، وللرجل أن يقترب الحطيفة ثم يدفع قدرا من المال فيعود طاهرا كأنه لم يقتربها . . . . . وتعالى صيحات الاحتجاج على الكنيسة من مختلف أركان أوروبا .

٤ - نمت حركة تحول الاهتمام من روحانية العالم الآخر ومن خوارق الطبيعة الى العالم الطبيعى ، وبدأ الناس يدرسون الطبيعة وظواهرها وأن لها قوانين تسيروها ويمكن معرفتها .

٥ - نمت دعوة الحركة الطبيعية التى تقول بأن للطبيعة البشرية صفات للخير متضمنة فيها . وكانت هذه الحركة تحديا صارخا لمذهب الحطيفة المتأصلة والتأكيد على الشر الفطرى فى الطبيعة البشرية .

٦ - نمت الاهتمامات بالأدب الكلاسيكى القديم ، فنقرأ عن الحركة الانسانية Humanism (١) وشغفها العميق باللغات القديمة وآدابها مع

احتقارهم لما عدا ذلك . ولكن الانسانيين لم يهاجموا الكنيسة ولا الدين ولا النظم السائدة منذ العصور الوسطى ، ولم يعنوا بالبحث في الطبيعة ، ومع ذلك فقد اهتموا بالطبيعة البشرية وبفردية الانسان وهاجموا خضوع الفرد لمطالب المؤسسات كالكنيسة والنقابة ، ووجدوا أن الطريق الى كمال الطبيعة البشرية هو دراسة الآداب القديمة .

ومن كبار المنادين بالحركة الانسانية ايرازمس الهولندي Erasmus ( ١٤٦٦ - ١٥٣٦ ) الذي درس الآداب القديمة ودرس في جامعة كامبردج وجامعات فرنسا وكتب مؤلفات عدة .

### الاتجاهات التربوية في عصر النهضة :

كان لابد أن تتأثر التربية بما أصاب المجتمع في عصر النهضة من تغيرات جعلته مجتمعا يختلف عن مجتمع العصور الوسطى . ويمكن القول بأن التربية ( الحديثة ) التي حتمها مجتمع عصر النهضة تختلف جذريا عن التربية ( القديمة ) في تأويلها للفلسفة الاغريقية ، فاصبح لافلاطون مكانة اسمى من مكانة أرسطو ، كما افسح الطريق لدراسة آداب الاغريق والرومان على أساس أنها تعبر اصدق تعبير عن خير ما في الانسان والطبيعة ، واهتمت التربية الحديثة بما في الآداب الكلاسيكية من قوة التعبير وجمال الصياغة والحرية والانطلاق . ويذكر أن من أسباب الانطلاقة الفكرية والحرية من القيود العقلية ما أنتجته الحروب الصليبية وخاصة من ناحية الاحتكاك بالشرق الاسلامي ، هذا الى جانب ما أسهمت به الجامعات من اذكاء للفكر المتحمس الحر الذكي المنطلق . ولا ننسى قيام الطبقة البرجوازية في المدن الكبرى . وكذلك كان لاختراع البارود أثره في أن جعل في امكان الرجل العادي أن يتحدى السلطة التي تعتمد على القوة المعادية . كما أن اختراع الطباعة مكن للمعرفة أن تنتشر ولا تكون حكرا لفئة قليلة . وكانت هذه الفئة - في العصور الوسطى - تحتكر التفكير وتقصره عليها ولذلك كانت هناك وحدة فكرية تفتتت في عصر النهضة .

وبدأ انسان عصر النهضة يجد شخصيته التي تاهت منه في ظلام العصور الوسطى ، وبدأ يحس بإمكانية التعبير عن نفسه . وبهذا بدأت تظهر تيارات فكرية حلت محل ركود وجمود قرون طويلة مضت ، على أن هذه القيادات الفكرية لم تأخذ سبيلها المنتظم المنتسق ، فقد ظهرت في بدايتها أمواج عاتية عالية ذات صبغة فردية متطرفة . ثم تحولت تدريجيا

الى حركات نظامية . بل الى أنماط من المدارس الفكرية . ويرى منرو أنه تتمثل في عصر النهضة ثلاث نواح من الاهتمامات كانت مجهولة في العصور الوسطى ، وأنها فتحت ثلاثة من ميادين الحياة أو مظاهرها كانت مطوية تقريبا تحت صدا العصور الوسطى وهذه النواحي هي :

١ - اهتمام بالحياة الماضية الحقيقية وامكاناتها كما عبر عنها الاغريق والرومان في آدابهم وفنونهم ، بينما تناسى مجتمع العصور الوسطى هذه الحياة بل لم يلقوا اليها اهتماما يذكر .

٢ - اهتمام بالعالم الشخصى وهو عالم الانفعالات والاستمتاع بالحياة وتذوق ما فيها من جمال وادراك حقائق النفس البشرية ، ويتم هذا بالمشاركة فى كل مناحى النشاط الحيوى التى تحيط بالفرد حتى يتثقف ذاتيا . وقد أهملت العصور الوسطى هذا الاهتمام ، بل جهلته .

٣ - اهتمام بالعالم الطبيعى ، فقد أهملت العصور الوسطى هذا العالم بل رأت أن المسائل الطبيعية غير جديرة بأى اهتمام .

وقد أدت هذه الاهتمامات الثلاثة الى اتجاهات نحو التثقيف الذاتى والنمو الشخصى ومحاولة الوصول الى تربية مركزها النفس البشرية ، والى الاهتمام بالحياة الدنيا .

كما أدت هذه الاتجاهات الى بعث الفلسفة الاغريقية واعادتها الى الحياة بعد ما أضفاه عليها الشراح من فلاسفة العرب ، وخاصة فلسفة أرسطو . وكان الاهتمام موجها الى مبادئ أرسطو الطبيعية أكثر من الاهتمام بالجزء الخاص فى فلسفته عما وراء الطبيعة . ويتميز عصر النهضة بالعناية بالناحية الفردية وبالميل الى الحقيقة المادية ، ومن ثم الى الناحية الجمالية .

### ثانيا - حركة الإصلاح الدينى :

وقد بدأت الثورة الدينية فى المانيا ، وكان الألمان يدفعون مبالغ ضخمة بل كان على الأساقفة الألمان أثر تعيينهم فى وظائفهم أن يدفعوا مبالغ كبيرة للخزانة البابوية ليحصلوا على تأييد البابا ، ولم يعجب بعض قادة الألمان تدخل البابا فى هذا التعيين ، كما أن فى كتابات ايرازمس وخاصة فى مؤلفه « تمجيد السداجة » سخيرية من هذا التدخل البابوى . وكان ايرازمس يعتقد دائما أن هذه التصرفات البابوية لن تجد قبولا عند الناس عندما ينالون قسطا كافيا من التعليم .

وفى عام ١٥٢٠ كتب مارتن لوثر Luther الأستاذ بجامعة وتنبرج كتيباً بعنوان: An Address to the German Nobility طلب فيه من الحكام الألمان اصلاح الكنيسة ، فقد وجد استحالة هذا الاصلاح عن طريق البابا . واطهر تحسراً على المبالغ التى تدفع للكنيسة الرومانية وطالب بتقليل عدد أيام العطلات الكنسية وفى الأديرة وللسماح لرجال الدين بالزواج (١) .

وهاجم البابا باليو العاشر ، مارتن لوثر وآرامه ، ولكن الأمراء الألمان عضدوا موقف لوثر رافضين تدخل الكنيسة فى شئونهم . وأمام مجلس عقد فى (ورمز) سنة ١٥٢١ اعترف لوثر بمهاجمة الكنيسة . واعتبر لوثر مارقاً على الكنيسة ومهدداً لها والدولة ، وطلب أعضاء المجلس الذى دعا اليه شارل الخامس فى ورمز أن يمتنع الناس عن اعطاء لوثر طعاماً أو شراباً أو مأوى ، وصدر أمر بالقبض عليه . ولم يعر أحد التفاتاً الى قرار ورمز هذا ، فقد هرب لوثر وتحصن فى قلعة بمدينة رتبرج تحت حماية الأمير المنتخب . ثم بدأ ترجمة جديدة للإنجيل الى الألمانية .

واندلعت الثورة الدينية ، وترك عدد كبير من الرهبان والراهبات الأديرة وتزوجوا . ومزق الطلبة والمواطنون صور القديسين فى الكنائس ، بل توقفوا عن بعض الصلوات الدينية التى تعزى بها الكنيسة الكاثوليكية . ولكن لوثر ثار ضد هذه التصرفات ، وخرج يعلن أن أية تغييرات فى هذه الاجراءات الدينية يجب أن تبدأ بها الحكومة لا الشعب ، واستمع الحكام لأقوال لوثر لأنهم وجدوا فيها فرصة للاستيلاء على ممتلكات الكنيسة ، كما استمع الفلاحون لآرائه لأنها وضعت الكتاب المقدس بين أيديهم ولم يجدوا فيه ما يحتم عليهم دفع اتاوات لسادتهم .

واذا تركنا ألمانيا الى سويسرا وجدنا الحركة البروتستانتية يتزعمها زونجلي Zwingli وكلفن Calvin : فقد قاد زونجلي حركة تمرد دينية وسيطر على زيورخ ولكنه قتل فيها . وخلفه كلفن الذى كتب رسالة الى فرنسيس الأول ملك فرنسا يبرر فيها الحركة البروتستانتية ، ومعتمداً كل الاعتماد على ما جاء فى الإنجيل ، فهو مثلاً يرفض استخدام الأرض والنوافذ ذات الزجاج الملون فى الكنائس لأن الكتاب المقدس لم يذكر عنها شيئاً (٢) .

Robinson, J.H. and Smith, B.P. : Our World today and Yesterday, P. 105. (١)

Butts, op, cit. pp. 142-240. (٢)

وانتشرت الحركة الكلفنية من جنيف الى المانيا ، ثم تفلقت في فرنسا حيث عرف أتباعها باسم الهيجنوت Hugenots ، ثم في الأرض المنخفضة ثم في إنجلترا بين المتطهرين Puritans وفي اسكتلندا بين البرسبيطارين Presbyterians وقد هاجر عدد كبير من الكلفنيين من مختلف هذه الطوائف الى أمريكا :

وكان لحركة الإصلاح الديني أثرها في البناء الاجتماعي والتربية ، أما عن البناء الاجتماعي فقد انتقل فيه مركز الثقل بحيث توزعت القوة بين الطبقات بل ان الطبقة الوسطى استخلصت لنفسها مكانة أخذت تتزايد عبر الأجيال .

### المداول التربوي لحركة الإصلاح الديني :

الأصل في حركة الإصلاح الديني أنها احتجاج صارخ على قصر سيطرة الكتاب المقدس على المسائل الدينية ، واحتجاج على سيطرة رجال الدين ، ورغبة في تحكيم الفرد عقله في تفسير الكتاب المقدس ، وقد انقسمت حركة الإصلاح الديني الى ثلاثة تيارات رئيسية (١) :

١ - الاتجاه العلمي والفلسفي الذي لم يبد واضحاً الا في القرن السابع عشر .

٢ - الاتجاه الانساني المتأرجح بين الناحيتين التقدمية والتقليدية .

٣ - الاتجاه اللاهوتي .

وقد اقتنع قادة الإصلاح الديني بضرورة وجوب تفسير الكتاب المقدس تبعاً لما ترتضيه عقلية الفرد ، ولكنهم وجدوا من الصعب عليهم اقناع غيرهم بهذا ولذلك لم تبذل جهود ايجابية في تنمية القوى العقلية والتفكيرية والدينية ، والمسائل الدنيوية ، ونظم الحياة الاجتماعية ، وحقائق الطبيعة .

ولكن غلبت على التربية الناحية الشكلية التي تمت نتيجة لسيطرة الجامعات اللاهوتية من لوثرية ، وكلفنية ، وزونجية وغيرها . وكثرت الطوائف المتنازعة وظهرت عقائد مختلفة ، وتأثرت التربية بهذه الانقسامات الشكلية الضعيفة . ويمكن تلخيص مبادئ التربية البروتستانتية في :

١ - الاهتمام بالمواد الانسانية ، فهذه تقوم على دراسة اللغات الكلاسيكية ، وهذه الدراسة تتيح للدارس قراءة ودراسة الكتاب المقدس وكتب الآباء بلغاتها الأصلية .

٢ - تأسيس نظام من المدارس على فكرة « التربية العامة » ، وهذا النظام مبني على ما رآه زعماء حركة الاصلاح الديني من أن السعادة الأبدية لكل فرد تتوقف على تحكيم عقله في تعاليم الوحي التي تضمنها الكتاب المقدس ولكي يتفهم البروتستانتى تعاليم الانجيل ويتمرن على تحكيم عقله ، كان لابد له من دخول المدرسة . وبذلك أصبحت للمدرسة وظيفة جديدة ، وأصبح لزاما أن تفتح مدارس كثيرة لتقبل آلاف الأطفال .

٣ - تهدف التربية في نظر البروتستانتين الى تنمية المعتقدات الدينية وزيادة ميل الطفل وحبه للكنيسة لأنه سيترب على ذلك مساعده الأبدية . ولهذا كان محور الدراسة هو الدين والاعداد اللغوي .

٤ - يقوم على ادارة المدرسة اما كبير الكنيسة ، واما الدولة والكنيسة معا ، وتميزت هذه الادارة بالحزم الشديد واحترام السلطة والتقاليد وخضوع التلاميذ لها خضوعا تاما .

### \* \* \*

واذ تشهد الأرض الغربية خطوات مثل اختراع الآلة البخارية والثورة الصناعية بكل ما ترتب عليها من آثار ونمو الروح القومية وعلو شأن الطبقات البورجوازية والرأسمالية وشتى الأفكار الديمقراطية الليبرالية ، تبرز على سطح الفكر التربوي اتجاهات متعددة تمثلها شخصيات مختلفة ، مثل الاتجاه الواقعي والاتجاه الطبيعي والاتجاه النفسى والاتجاه الاجتماعى ... الخ . وسوف نقف وقفة طويلة بعض الشيء أمام عدد من مفكرى التربية الغربية الذين يمثلون هذه الاتجاهات .

### الحركة الواقعية :

وقوامها الاهتمام بالجوانب العملية فى التربية ، والاهتمام بالمضمون فيما يدرسه المتعلمون . وكان الانسانيون الواقعيون Humanistic Realists أحد وجهين للحركة الواقعية ، أما الوجه الثانى ، فقد بدأه فرنسيس بيكون الذى وجد فى الطبيعة ومظاهرها مضمون الدراسة والبحث ، فبدلا من

الحقيقة التي توجد بين صفحات الكتب ، فانه بحث عنها في قوى وقوانين الطبيعة ، ويعرف هذا الوجه من الحركة الواقعية باسم الواقعية العلمية Scientific Realism ، ومن دعائها :

جون لوك John Locke ( ١٦٣٢ - ١٧٠٤ ) :

عاش لوك خلال فترة من الانقلابات السياسية في انجلترا وقد شهد الثورة ضد شارل الأول . وضد كرومويل ، وعودة شارل الثاني وتولية وليم وماري . وقد ولد في عام ١٦٣٢ . وفي عام ١٦٩٣ نشر كتابه « بعض أفكار عن التربية "Some Thoughts Concerning Education" ويستكمل في هذا الكتاب آراءه التي أوردتها في كتابين سابقين هما « مقال عن الفهم البشري » An Essay Concerning Human Understanding و « سلوك الفهم » The Conduct of the Understanding

وقد انتشرت آراء لوك وتردد صداها ، في حين أن آراء كومنيوس لم تجد مثل هذا الصدى لمدة قرنين على الأقل ، ولعل السبب كما يراه يولييك أن لوك قدم للقرن الثامن عشر مزيجا رائعا للتقدم والرجعية . وقد أعجب هذا المزيج المستنيرين وخاصة من بين الانجليز . وقد أعطى لوك صورة للرجل المثالي . وجذبت الصورة الكثيرين فأقبلوا عليها .

وتوصف الشخصية المثالية بأنها متحررة من قيود السياسة والدين ، بعيدة عن القيود التي توارثها النبلاء وطبقتهم التي بدأت شمسها تغيب . ولعل المدة التي قضها لوك في المنفى جعلته يرفض النظام المستبد في الحكم ، وحكاية الحق الالهي المقدس الذي أضفى على الملوك . ولعل موقفه أزال غشاوة عن عيون الناس فبدأوا يتساءلون باحثين عن الحكومة العادلة ، وعن التحرر من السيطرة السياسية . ففي رأيه أن الانسان بطبيعته قوة يحمي بها ممتلكاته ، أي حياته ، وحريته من غيره من البشر .

وفي « خطابات أربع عن التسامح » يهيب بمعاصريه الذين أنهكتهم الحروب الدينية والبغضاء أن يتحرروا دينيا . فما في النفوس ليس من سلطة الحاكم ، والدين مرتبط بما في عقل الفرد . وهذا ما يقبله الله ، فالله لا يقبل سلوكا نتج عن قوة من الحاكم . ولن تستطيع وسائل التعذيب ومصادرة الممتلكات والسجن أن تغير ما في نفس الفرد .

ولكن تناقضا يظهر في موقف لوك ، فان التربية من أجل ( الرجل

المثالي ) أو ( الجنتلمان ) لم تكن مستطاعة لكل الشعب . وإنما كانت ممكنة لطبقات مميزة ولذلك نراه يقول أنه إذا استقامت أمور هذه الفئة فسوف تستقيم أمور المجتمع كله عن طريقهم . وهنا يظهر التناقض بين النزعة التحررية ، وقصر التربية الكاملة على فئة معينة .

ومع ذلك فنسمع من لوك أقوالا عن تربية الأطفال الفقراء ، ومعظمهم كانوا شغالين ، فيقول : ان على الأطفال بين سن الثالثة والرابعة عشرة أن يكونوا تحت اشراف مدرسين يدربونهم على العمل وليفهموا الصناعة حتى يردوا بانتاجهم ما صرفه المجتمع على تغذيتهم !!

ويقف لوك مع فولتير الفرنسى فى صف واحد ! كلاهما يتكلم عن مجتمع من الأحرار مميز عن بقية المجتمع . بنس تربية هذه التى قالها لوك عن الفقراء وتدريبهم ليدفعوا ثمن طعامهم ، لقد كان كومنويوس قديسا اذا قورن بلوك ، وقد يتلمس بعض العذر للفيلسوف لوك اذا حررنا عقولنا من مفاهيمنا الحديثة وعشنا فى عصر الاضطرابات والسيطرة الدينية والارستقراطية .

واذا تركنا موقفه جانبا لندرس شيئا عن آرائه التربوية فنجد انه :

١ - يؤمن بأن الخبرة أساس كل المعرفة ، فالطفل يولد وعقله صفحة بيضاء Tabula Rasa. ان مصدر كل أفكارنا خبراتنا الحسية ، وادراك الظواهر الداخلية أى نشاط الفهم(١) .

٢ - يؤمن لوك بالالهام الالهى ، ولكنه ترك هذا الموضوع ليكون تحت بحث العقل البشرى .

٣ - يؤمن بضرورة التربية الجسمية والحلقية ، وان يبدأ الطفل تعلمه بالحسوسات ، ولهذا - فى رأى البعض - يصنف لوك بين جماعة الواقعيين الحسنيين .

٤ - تهدف التربية الى قوة الجسم والفضيلة ، كما تتضح فى صلاح النشأة وحكمة السلوك والمعرفة . على أن المعرفة تتوقف على صحة الجسم

وحسن الخلق والنشأة الطيبة . ويظهر اهتمامه بتربية الجسم فيقول ان العقل السليم فى الجسم السليم (١) .

٥ - ينبغي ، لكى ينمو الأطفال نموا جسميا صحيحا ، ألا يلبسوا ملابس ثقيلة تدفئهم شتاء ، وأن يسيروا ورؤوسهم عارية . وأن يناموا مبكرا ويتيقظوا فى وقت مبكرا . والنوم ثمانى ساعات . والتقشف مستحب .

٦ - يرى أهمية التربية الخلقية ، فيكون الجسم قويا ليكون قادرا على تنفيذ أوامر العقل ، فالجسم القوى قادر على تحمل مختلف الصعاب . . حتى رغباته .

٧ - يجب أن يتعلم الطفل انكار الذات والسيطرة الذاتية ، ويجب أن يخضع الأطفال رغباتهم ومطالبهم فلا يندفعون وراءها . فلا يحصلون على شئ لأنه يرضيهم ، ولكن لأنه يصلح لهم .

٨ - تهدف التربية الأولى الى تكوين العادات الصالحة ، ويتدرب الأطفال على تقبل أوامر الأب والمعلم ، عن أن يتحكم الخوف فى تحديد سلوكهم فى طفولتهم . ويتحول محور السلوك الى الحب والصداقة عندما يكبر الطفل ، ومع ذلك يرى لو ك أن العقوبة الشديدة غير مجدية ، وينصح باستخدام المدح والتفريط أما العقوبات البدنية فهو يرفضها الا فى الحالات القصوى .

٩ - يهتم ببث الفضائل منذ بواكير الطفولة . فبالفضائل يتمتع الطفل بحب واحترام الآخرين كما يتعود التسامح مع نفسه . والسبيل الى الفضائل هو التعليم الدينى صباحا ومساء حتى يتعود الاخلاص لله الخالق الوهاب الحافظ .

١٠ - تأتى التربية العقلية فى مرحلة تالية للخلقية ، ولا يرام من التربية العقلية أن يحقق المتعلم كمالات فى علم من العلوم ، ولكن ليتفتح عقله لشمس العلوم . ومهمة المربي أن يدرب ( ملكات ) المتعلم ويعلمه حسن استخدام وقته . وأن يعوده تحمل الآلام ليحقق الكمال فى عمله .

ولكى يفكر الفرد تفكيرا سليما فيجب أن يدرب عقله على ملاحظة العلاقات بين الأفكار ، والرياضيات خير تدريب على هذه الملاحظة ، فهى الطريق الى « تكوين مخلوقات عاقلة » .

---

(١) كما وردت فى القسم الثانى من كتابه

وبعد هذا العرض السريع لأهم آراء لوك التربوية ، لعلنا نتساءل : أين مكانه بين فلاسفة التربية ؟ فإن البعض يضعه في زمرة الانسانيين ، والبعض يراه واقعيا وأحيانا نفعا ، فمع أنه قد نادى بتدريب العقل ، ولكن بعض آرائه لا تتفق مع القائلين بنظرية التدريب الشكلى . فهو يرفض ما يذكرونه عن انتقال أثر التدريب .

كتب لوك عن تربية طبقة خاصة ، ولذلك فلم تجد آراؤه صدى تطبيقا فى المدارس ، ومع ذلك فقد أثرت آراؤه على التربية الانجليزية والأمريكية وخاصة فى عملية التدريب ، ومشكلة النظام ، كما تأثر بها روسو وخاصة فى قوله بتربية الطفل تربية طبيعية .

### الحركات الطبيعية والنفسية والاجتماعية :

ولم ترض هذه الأرستقراطية العقلية بعض المفكرين وقتئذ ، فقد راوا فيها طبقة ذكية تقوم على أطلال طبقة غنية . وكان معنى هذا أن تعيش جموع الشعب فى ظلام وجهل . ويقول منرو ان الحركة الفكرية فى هذه النزعة الأرستقراطية تحولت الى نوع من التنكسية ، شكلية فى الشكل وفى الأثرة وقلة الاكتراث . وفى زخرفة مظاهر الاختلاط الاجتماعى ، وفى أنظمة عرجاء لمجتمع زائف ، بذلك بعدت هذه الحكمة المرجاء وسيادة الطبقة المتعلمة المصطنعة عن البساطة لاعتبارها دليلا على الابتذال ، كما بعدت عن المنهج الطبيعى . ثم ظهر جان جاك روسو يدعو الى مذهب طبيعى .

جان جاك روسو Jan Jacques Rousseau ( ١٧١٢ - ١٧٧٨ ) :

يدرك الدارس لآراء روسو مدى تأثيره بآراء مونتين ولوك ، ولكنه كان أكثر قدرة وشجاعة فى توضيح رأيه ، فلم يبال بما ساد عصره من عادات وأفكار لم تعجبه ، فقد تأثر بآراء مونتين فى تربية الحواس مؤكدا أن العقل السليم فى الجسم السليم ، كما تأثر بآراء لوك فى العناية بتربية الجسم والعقل والخلق وعدم تدليل الأطفال بالمغالة فى كسائهم وتدفنتهم شتاء ، ولكنه آمن بترك الطفل حرا يفعل ما يشاء . . وسوف تعلمه الطبيعة وتربيته .

ولد روسو فى عائلة فرنسية برتستانتية تسكن جنيف عام ١٧١٢ ، وماتت أمه فى ولادته ، ورباه والده الى سن العاشرة ثم كفله أقارب أمه وصادف فى حياته كثيرا من صنوف العذاب ألوان الهوان الخلقي .

وكتب روسو « العقد الاجتماعي The Social Contract » وفيه دافع عن الفقراء وانتصر للعامة وطالب بالرجوع الى الطبيعة لتحقيق العدالة الاجتماعية . وكان روسو جريئا في كتابته في وقت كانت فيه الجرأة نادرة . في وقت ساد فيه القول بأنه اذا كان الحكم ذنابا وجب أن يكون المسيحيون غنما ، نادى روسو بالحرية والمساواة فلا يمعن الغنى في غناه ويمعن الفقير في فقره حتى لا يشتري الغنى الفقراء ، ويبيع الفقير نفسه لعوزه وحاجته . والظاهر أن طفولة روسو وحياته بين فقراء أحيانا وأغنياء أحيانا أخرى ، ثم احتكاكه بعناصر الفساد الخلقي على مستوى الجماعات وعلى مستوى الافراد ، والنذالة التي عامل بها بعض الذين أحسنوا اليه ، والنذالة التي عومل هو بها . كل هذا جعله يكتب بإيمان وصدق . وقد عارض آراء فولتير الذي وصف جموع الشعب بأنهم أغنياء متوحشون ، وأنهم ثيران لا يحتاجون الا الى منخس ينخسون به ، ونير يوضع على رقابهم ، وعشب يأكلونه (١) .

وكتب روسو الاعترافات Confessions ، أظهر فيها الطبيعة الحقة للانسان . وكان أمينا في شجاعة وقحة ، فلم يخف خطيئة من الخطايا التي ارتكبها ، ويذكر أن أحدا قبله لم يقف عاريا - في كتابته - أمام العالم كما فعل .

أما مؤلفه الخالد اميل Emile فكان الدافع له على كتابته سؤالا من سيدة طلبت أن يرشدتها الى الطريقة المثلى في تربية أبنائها . وقد وضح في اميل كيف يربى الطفل منذ ولادته حتى يبلغ العشرين من عمره ، وتشمل الأجزاء الأربعة الأولى من اميل هذه التربية ، أما الجزء الخامس فشرح فيه تربية البنات لتكون امرأة تربي أبنائها وتسعد زوجها .

أما عن آرائه التربوية التي تردد صداها فسوف نكتفي بتلخيص وجيز لها :

١ - يرى أن هدف التربية هو تكوين انسان كامل ، وأن على التربية أن تزيل كل شيء لتنمو الطبيعة الانسانية وترقى ، فالتربية بهذا المعنى وسيلة يزول بمقتضاها ما يعوق نمو الطفل وما يؤثر فيه تأثيرا سيئا .

٢ - ثار روسو ضد النظم القائمة وخاطب الناس قائلا : « سيروا ضد ما أنتم عليه تصلوا الى النجاح » . وقد هزأ بالتعليم المدرسى العادى ، ونصح المربين بأن يرجعوا مع الأطفال الى الحالة الطبيعية .

ولا ندرى بالضبط ماذا يريد روسو بالحالة الطبيعية . فهو يقول انه لا يجب أن يسمح للطفل فى تربيته بالاختلاط بأحد حتى لا يقلد نموذجا سيئا . وليذهب الأطفال الى الطبيعة ويبقوا على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق مستوى البحر حتى لا يصابوا بأمراض خلقية اجتماعية !!

٣ - يرى روسو أن التربية الأولى من الميلاد الى سن الثانية عشرة يجب أن تكون سلبية محضة ، اذ أنها لا تدعو الى بث الفضائل بل عليها أن تبعد كل ما يكون الرذائل عند الطفل ، وحتى تحفظ عقل الطفل من الخطأ . والخير فى أن تترك الطفل دون أن تفعل شيئا له . وفى رأيه الا يعلم الطفل شيئا حتى الثانية عشرة .

٤ - حتم روسو على المربين دراسة الأطفال وأن يدرسوا العالم فى نظر الطفل وعقليته وغرائزه وميوله وتفكيره . . . الخ ، ويقول « ادرسوا أطفالكم . اننا لا نفهم معنى الطفولة » . وكان يرى أن جهل المربين بالأطفال والطفولة أدى الى تربيتهم تربية خاطئة . ورأى . . . « ان الطبيعة تتطلب أن يكون الأطفال أطفالا قبل أن يكونوا رجالا » . والطفل فى نظره ليس مصغر رجل ولكنه كائن فى طريق النمو . ويتكلم روسو عن صفات الأطفال فيقول « ان الأطفال لا يفكرون الا فى الحاضر دائما » . ان فى استطاعتك أن توحى اليهم بذوق أو عاطفة ، انهم معجبون بأنفسهم يتمنون أن يكون لديهم ما لدى غيرهم ، انهم مرحون محبوبون للمحاكاة ، فان الطفل يتمنى أن يكون اشياء ، وأن يقلد ، وأن ينتج ، وأن يظهر قوة ونشاطا » (١) .

وكان يرى أن وظيفة المربين اعداد الطفل للحياة المقبلة وأن يدركوا العالم فى نظره ، وكيف يراه ويتخيله ، وأن يفكروا فى عالم الطفولة الذى يعيش فيه حتى يأخذ من المواد ما يلائم ذلك العالم .

٥ - اهتم روسو بنشاط الطفل ونصح بعمده بالوسائل التى يظهر فيها هذا النشاط ، كما نادى باستغلال حواس الطفل وتربيتها منذ الطفولة .

بل انه نادى بعدم تعليم الاطفال القراءة فى الصغر معتقدا أن حركة الطفل ولعبه أكثر فائدة له فى الناحيتين الجسمية والعقلية .

٦ - يرى روسو أن يقلل بقدر المستطاع من الأوامر والنواهي التى يصدرها الكبار للأطفال ، فكثرتها تमित شعور الطفل ، ولا تدفعه الى التفكير لأنه يصبح آلة فى يد غيره . ولذلك فهو يرى أن يتعود الطفل السلوك دون سلطة خارجية تصده عن الخطأ ، اذ أن معنى هذه السلطة أنه يعمل خوفاً من عقاب ولا يفكر فى ارضاء ضميره أمام الله والانسانية . وانما يسلك ما يسلك لارضاء غيره .

٧ - يؤمن روسو بتشجيع الدراسة العملية والطبيعية والرياضية ، ويندد بتعليم الآداب واللغات كما يرى ألا يعتمد الطفل على الكتب وحدها فى التعلم .

٨ - وفى رأى روسو أن يترك الطفل للطبيعة يتعلم ما فيها من أسرار ، ويدرس ما فيها من نبات وحيوان وجماد حتى يقدر قدرة الخالق ، والطبيعة فى نظره خيرة وأن الشر يأتى الى الانسان من احتكاكه بالناس .

وقد عبر روسو عن آرائه التربوية فى كتاباته ، وخاصة فى « اميل » ، واميل شخصية ربانها روسو فى كتابه ، ولم يقترح نظاما للتعليم ، ولكنه ترك الطبيعة تأخذ مجراها ، والكثير من الآراء التى أوردها لا يمكن تطبيقها اليوم ، ولكن روسو يقترح عسديدا من الوسائل لدراسة طبيعة الطفل . والكتاب فى خمسة أجزاء (١) :

١ - الجزء الأول : من الميلاد الى الخامسة ، وينصح روسو بأن ينقل الطفل الى الريف نيعيش وسط الطبيعة . ولا يتدخل أحد فى تربيته ، بل يترك لتقوم الطبيعة بتهيئة الظروف للنمو الداخلى لمواهب الطفل وأعضائه وينصح ألا يلف الطفل بعد ولادته بالأربطة والنفقات ، فهذا معوق لنموه الطبيعى . وألا تغالى فى العناية به حتى ينمو مستعدا لمقابلة صعوبات الحياة ، فنجيب طلباته الضرورية دون أن ندله . ويوجه الطفل فى هذه المرحلة : الأم مصدر حبه ، والأب هو المربي الأول للطفل ، ثم المعلم الذى يعلم الطفل واجبات الرجال .

٢ - الجزء الثاني : من الخامسة الى الثانية عشرة ، ويظل الطفل فى الريف ، ويتركه المعلم يعلم نفسه بنفسه من الطبيعة . فاذا أخطأ يتحمل تبعه خطئه . والتربية فى هذه المرحلة جسمية ، وينصح بأن يعود الطفل الحشونة ، وتتميز هذه المرحلة بأن التربية فيها سلبية ، تهتم بتعويد الطفل العادات الحنقية السليمة ، ولا يتعلم القراءة والكتابة ، بل لا يحمل على تعلم أشياء لا يقدر على فهمها ، وأن يقتصر الاعداد التربوى للطفل على مجرد تدريب الحواس .

٣ - الجزء الثالث : من الثانية عشرة الى الخامسة عشرة ، وهذه مرحلة البلوغ ويراها روسو مرحلة التفكير والدراسة ، ومرحلة العمل والتعليم . وينصح بأن نعلم على الظما الطبيعى للطفل نحو المعرفة . ونعتمد على الطبيعة وألا نلجأ الى الكتب ، فالعالم المحيط بالطفل هو كتابه ، وحقائق هذا العالم هى موضوعات التعليم . وينصح روسو بتعليم اميل الجغرافية ، والفلك والجبر والطبيعة ، ويكون تعلمها بطريقة عملية .

ويرى أن يكون كتاب روبنسن كروزو أول كتاب يقرؤه اميل ، سيتقمص شخصية روبنسن ويتعلم بعض الصناعات التى كان يقوم بها بطله ، وأن هذا سيحرك فيه دافع البحث عن فنون أخرى . ومرة أخرى ينصح روسو بأن يعود اميل للتقشف فيفترش الأرض ويلتحف السماء مثلا .

٤ - الجزء الرابع : من الخامسة عشرة الى العشرين ، فبعد أن أخذ اميل قسطا كافيا من التربية الجسمية والعقلية أصبح لازما أن يربى دينيا وأخلاقيا حتى يدرك صلته بالناس وعلاقته بالله . ويرى الاقلال من النصائح والارشاد وزيادة اتباع الطرق العملية واحتذائه المثل الصالحة التى يلمسها فى سير أبطال التاريخ . ومن رأى روسو أن تعليم الدين لا يبدأ الا فى سن الخامسة عشرة . ويفيد اميل من احتكاكه بذوى الخلق السيء وزيارته للملاجئ والسجون حتى يشاهد أمثلة محسوسة للبوؤس ويتعرف على نتائج السلوك الخاطى . وفى هذه المرحلة يبدأ اميل بتذوق القراءة والفن .

٥ - الجزء الخامس : تربية المرأة ، فقد كبر اميل وبدأ يبحث عن زوجة ، فوجد صوفى . وفى هذا الجزء يعطينا روسو آراء عن تربية البنات التى ستصبح امرأة مهمتها ارضاء الرجل . ولهذا فيجب أن تربي لتحقق هذا الهدف . وحيث أنها تسعى الى ارضاء رجلها فيجب أن تمرن جسيما لتكون رشيقة سليمة البنية قوية ، وتتعلم كيف تكون فاتنة جذابة ، ولا يرى

أن تتعلم علوما عقلية ، وكل ما تتعلمه يدور حول اسعاد وخدمة الذكر ،  
طفلا وصبيا وزوجا .

ويرى بعض الكتاب أن موقف روسو الشاذ من تعليم المرأة وحقيقة دورها في المجتمع إنما سببه أنه لم يعرف في حياته نساء ذوات شخصيات محترمة . ألم يتزوج خادمة غبية جاهلة سنيطة اللسان ناكرة الجميل ؟!

لا يختلف المربون في قولهم ان روسو واضح أصول المذاهب الطبيعية في التربية ، لقد ألح بوجوب اتباع الطبيعة ، فيقول : ان كل شيء حسن ما دام في يد الطبيعة ، ولكن كل شيء يلحقه الفساد اذا مسته يد الانسان ، نحن نولد ضعفاء في حاجة الى عون . نحن نولد أغبياء ، في حاجة الى قدرة على التمييز . فكل ما حرمانه عند الميلاد ، ونحتاجه عندما نكبر ، تمنحنا اياه التربية (١) .

لعل صيحة روسو *Retournez à la nature* العودة الى الطبيعة ، قد هزت المربين في عملهم ( الروتيني ) ، وغبرت في طرائق التربية ، وأثرت في اتجاهات الكبار نحو الأطفال الذين لم يصبحوا رجالا مصغرين ، ونال الأطفال حقوقهم على يد روسو ، بل نالت التربية مكانتها في مركز النمو البشري بعد أن تخلصت من دورانها في فلك الكنيسة والدولة والمجتمع (٢) .

### \* \* \*

... ويتقدم ركبنا في تطوره التربوي حتى نطل من نافذة التاريخ على القرن التاسع عشر . وقد وارىنا روسو التراب بعد صيحته المدوية الطبيعية والتي وجهت النظر الى الطبيعة ، طبيعة الطفل والطبيعة الحرة التي يتربى في أحضانها . وتتحول التربية بالطبيعة الى التربية بالنمو ، ومن صيحة روسو وحياة اميل يبدأ عصر جديد للتربية بعد أن أصبحت طبيعية تبدأ من الغرائز انظرية ومن الدوافع الى العمل ، توجهها المبادئ المستمدة من دراسة عقلية الطفل ونموه ، ومن عقلية الراشد وكيف تعمل ، وبهذا وضع روسو الأحجار الأولى في بناء الحركة النفسية .

---

(١) جان جاك روسو ( ترجمة عادل زعيتير ) : اميل أو التربية ، ص ٢٧ - ٢٩ .  
(٢) Ulich, op. cit., p. 223.

ومع نهاية القرن الثامن عشر وبزوغ خميس التاسع عشر ، بدأت الحركات الثلاث ( النفسية والعلمية والاجتماعية ) تظهر على مسرح التربية متضامنة فى تكامل أصبح ينمو على مر السنين حتى يتعدى الفصل بينهما ، فقد التقت آراء المربين بمبادئها المتناسقة . وان نظرة فاحصة قد تظهر لنا أن الحركة النفسية أسهمت بقسط كبير فى طرق التدريس ، كما تأثرت مادة الدراسة بالحركة الاجتماعية فتغلغلت فى المناهج والخطط المدرسية وفلسفتها .

وكانت نداءات روسو ذات طابع سلبى ، فهى تطلب أن تزال العقبات التى تقف أمام النمو الطبيعى للطفل ، وجاءت الحركة النفسية لتبذل مجهودا للتعبير عن هذه النداءات ايجابيا ، ومن دعائها :

هربارت Johann Friedrich Herbart ( ١٧٧٦ - ١٨٤١ ) :

تناول هربارت أفكار بستانلوتزى وصبغها بالأسس النفسية . وقد ولد بمدينة أولدنبرج بألمانيا عام ١٧٧٦ من عائلة على قدر كبير من الثقافة . ودرس الفلسفة فى جامعة يينا حيث تأثر بآراء فخته ، وفى عام ١٧٩٩ قبل وظيفة مؤدب لثلاثة أخوة أعمارهم : ثمانى ، وعشر ، وأربع عشرة سنة . ومن هذه التجربة العملية كون عقيدته التربوية . وقد زار معهد بستانلوتزى فى برجن دورف عام ١٧٩٩ ، وعين أستاذا للفلسفة فى جامعة هيدلبرج عام ١٨٠٩ ، وألقى بها مركزا نموذجيا لتدريب المفتشين والنظار ، ومن أهم كتاباته « نظام الفلسفة وكتاب علم النفس » ، و « مقالات تربوية » ، و « ملاحظات فى التربية العامة » .

وقد أسس هربارت آراءه التربوية على الأخلاق وعلم النفس ، فالأخلاق تحدد الهدف ، وعلم النفس يشير الى الوسائل . وتلخص آراء هربارت فى :

١ - غاية التربية الأخلاق والفضيلة ، والطريق الى الفضيلة هو المعرفة الكاملة . وعلى المدرس أن ينمى فى تلاميذه البصيرة والارادة حتى يتحقق الانسجام بينهما ، وعليه أن يفهم أولا نفسية تلميذه .

٢ - يتحدث هربارت عن التربية تحت عناوين : الحكومة ، والتعليم ، والتدريب ، فالحكومة تهتم بحاضر الطفل ، والتدريب بمستقبله .

٣ - لتحقيق الهدف الأسمى من التعليم ، وهو الفضيلة ، فيجب أن نهتم بهدف قريب هو تحقيق اهتمامات للطفل ؛ بهذا يضع هربارت أساسا

وطيداً في التربية تركز عليه اليوم ، هو مراعاة اهتمامات الطفل ، والاهتمام  
في رايه نوع من النشاط العقلي .

ويقسم هربارت الاهتمامات الى :

١ - اهتمامات تنبع من المعرفة ، وهي الخبرة الحسية التجريبية ، التأمل  
في طبيعة الأشياء ، التأمل وتقدير الجمال .

٢ - اهتمامات تتم عن طريق الربط ، وهي أفكار التعاطف الوجداني  
التي تربط الفرد بغيره ، والأفكار الاجتماعية المرتبطة بالمجتمع ، والأفكار  
الدينية المرتبطة بمصير الفرد ، لذلك فإن هربارت يرى أن تتجسس مادة  
الدراسة بشكل يحفظ فيها وحدتها وحتى يستطيع الطفل أن يدركها برمتها  
كما تعرض له . بهذا تقوى هذه الميول المتعددة الجوانب ، وقد طبق فكرته  
هذه في ( الطريقة العامة ) .

٣ - يرى هربارت أن النفس البشرية وحدة متصلة ، فلا تتكون من  
عقلية فطرية متصلة . وأوضح أنها تتصل بالعالم الخارجي أو بالبيئة عن  
طريق الجهاز العصبي . وبهذا الجهاز يتزود العقل بالمعلومات الأولية والمبادئ  
عن طريق الإدراك الحسي . وبهذا تتكون الحياة العقلية للطفل . كما أن تفاعل  
العقل لا يتكون ولا يكتسب ما ينطوي عليه من معارف بنمو القدرات الفطرية ،  
ولكن عن طريق الخبرة بما فيها من تجريب واستطلاع .

٤ - ومن الرأي ( الثاني والثالث ) يتكلم هربارت عن كيفية عرض  
المادة أو جزء من أجزائها . وعماد هذه الطريقة كيفية عمل العقل التي بها  
تتسع دائرة الشعور ، ولا تحددها طبيعة المادة ذاتها . والمؤكد أن هربارت  
لم يضع الطريقة بالصورة الشكلية التي عرفها المربون فيما بعد .  
و ( الطريقة ) الهربرتية تقسم الى خمسة أقسام (١) :

( أ ) الإعداد أو التحضير . وفيها يستدعي المدرس الى عقل تلاميذه  
الأفكار القديمة المرتبطة بالأفكار الجديدة التي يراد توصيلها للعقل .

( ب ) العرض الفعلي للأفكار الجديدة ، وهنا ترتبط الأفكار الجزئية  
بعضها ببعض وتوضح الفكرة العامة .

(ج) الربط ، ويقصد بالربط : الصلة الحقيقية بين القديم والحديث ، وفيها يتم التمثيل العقل للفكرة الجديدة ، وتجمع الأفكار المتشابهة مع بعضها البعض . وتظهر نقاط الاختلاف . وتتم المقارنة في هذه الخطوة والمقارنة هي منطق الاستقراء .

( د ) التعميم : اهتم بسنالكوتزى بموضوعات الخبرة الفردية والحسية فقط ، أما هربارت فقد أدرك أن التفكير الحقيقي يتم عن طريق تحليل الخبرات لاستخراج الصفات المعنوية ، وبهذا تتكون المدركات العامة : وهذه الخطوة ضرورية والا ظل العقل في مرحلة التفكير في الجزئيات والمحسوسات ، أما عن طريق التعميم فإن العقل يستنتج القواعد من الجزئيات .

(هـ) التطبيق : وفيه يستخدم الطفل المعرفة التي تعلمها . فهو يطبق القواعد والمبادئ، والمعارف في أنشطة مختلفة .

ولهاربارت الفضل في تحطيم نظرية الملكات والقوى العقلية المنفصلة ، وله الفضل في تقديم طريقة علمية رياضية للبحث التربوي ولعله وجه الأنظار الى اتجاهات تقدمية في اعداد المعلمين وتدريبهم . وقد ارتبط اسم هربارت في بداية القرن العشرين عند المدرسين بكلمات : الاهتمام ، الأفكار السابقة ، دائرة التفكير ، التركيز ، الربط ، ثم الخطوات الخمس التي أساء بعض المدرسين فهمها وأضافوا عليها شكلية في تحضير الدرس .

أما بالنسبة للاتجاه الاجتماعي فإن ملامحه وخصائصه ومظاهره فإنها تبتدىء في معظم ان لم نقل كل الفكر التربوي في مختلف أنحاء العالم في الوقت الحاضر مما هو واضح وجلي في مختلف العلوم والدراسات التربوية والنفسية .